مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 08/ العدد: 03 جوان (2022) - ص 80-93

المعايير النّقدية والفنية عند ابن سلام الجمحي

Critical and Technical Criteria for Ibn Salam Al-Jamahi

هاجر بلخيري
belkhiri.hadjer@univ-alger2.dz
جامعة الجزائر_ 2 _ أبو القاسم سعد الله

تاريخ الاستلام: 2021/10/30 تاريخ القبول: 2021/11/19 تاريخ النشر: 2022/06/16

ملخص البحث

انطلقت حركة النّقد الأدبي في آخر العصر الجاهلي، وكان ميدان نشاطه الأسواق التّجارية والمجالس الأدبيّة أين يجتمع النّاس مثل سوق عكاظ، هذا الأخير كان يجتمع فيه الشّعراء لإلقاء أشعارهم فكان الشّعراء ينقدون بعضهم البعض، فكان ذلك النّواة الأولى للنّقد العربي.

وبقي الشّعر على هذا الحال حتّى القرن الثّالث أين ظهر ابن سلام الجمحي، الّذي حاول من خلال كتابة "طبقات فحول الشّعراء" الموازنة بين الشّعراء وذلك عن طريق فكرة الطّبقات الّتي أخذها ابن سلام عن المحدّثين، وانطلاقا من هذه الفكرة قسم ابن سلام الشّعراء إلى عشرة طبقات وجعل في كلّ طبقة أربعة شعراء معتمدا في ذلك على نمط الطّبقة المغلقة كما سنرى.

الكلمات المفتاحية: النّقد العربي القديم، المعايير، الطبقات، الشّعراء القدامى، الموازنة.

ABSTRACT:

The literary criticism movement started at the end of the pre-Islamic era, and its field of activity was the commercial markets and literary councils where people gather, such as the Okaz market, the latter where poets gathered to recite their poems, and poets criticized each other, and that was the first nucleus of Arab criticism.

Poetry remained in this state until the third century when Ibn Salam al-Jumahi appeared, who, through his writing "Tabaqat Stahl al-Shu`ara", tried to balance the poets through the idea of strata that Ibn Salam took from the modernists, and based on this idea, Ibn Salam divided the poets into ten layers. And he made four poets in each class, depending on the pattern of the closed class.

مقدمة:

أقرّ **ابن سلام** في مقدمة كتابه عدم حديثه عن الشّعراء المحدّثين، وأنّه تعرض لمشاهير شعراء الجاهلية والإسلام، وحسب قراءتنا للكتاب نجده في الجزء الثّاني من الكتاب الخاص بطبقات الإسلاميين يقف عند شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي فقط دون الخوض في شعراء العصر العباسي.

وقد كان عمل **ابن سلام** مُمنهجا ودقيقا لهذا يعتبر كتابه اللّبنة الأولى الّتي أُسس عليها النّقد العربي القديم، فهو أوّل من اعتمد منهج الطّبقات في النّقد الأدبي، الّذي كان شائعا عند المحدثين، ووزع **ابن سلام** الشّعراء إلى طبقات حسب معايير مختلفة.

ففيما تمثلت هذه المعايير؟ وهل كانت المعايير متكافئة في اختيار الشّعراء؟ أم أنّها تختلف من شاعر لآخر؟ ولماذا لم يتعرض ابن سلام إلى شعراء العصر العباسي؟ وما السّبب الّذي جعله لا يضع طبقة خاصة بشعراء المسيح؟ وهل وفق ابن سلام في مراعاة المعايير النّقدية عند ترتيب الشّعراء أم أنّ الحبل فرط منه؟

قد لا يخرج **ابن سلام** في المعايير المعتمد عليها إلى ما ذهب إليها اللّغويين والنّحويين في احتجاجهم للشعر القديم، وبالتّالي لكلّ شاعر ضوابط خاصة به، فالمعايير تختلف حسب كلّ شاعر، لهذا قد يخرق **ابن سلام** تلك المعايير في تصنيفه للشّعراء ويفرط الحبل منه بوضع شعراء في غير موضعهم، وسبب تركيز **ابن سلام** على شعراء العصر الجاهلي والإسلامي قد يعود إلى تأثره باللّغويين الّذين عكفوا في دراستهم على الشّعر القديم فقط.

والهدف من هذا البحث تحديد المقاييس الّتي ارتكز عليها **ابن سلام** في تصنيفه للشّعراء، ومعرفة مدى تمكن النّاقد من الإلمام بدراسته والتّعمق فيها، مستندة في ذلك على المنهج الاستقرائي والمنهج النّقدي إضافة إلى آليات أخرى كالتّحليل والوصف.

1. المعايير النّقدية والفنية:

من خلال التّمهيد السّابق نجد بعض المعايير الّتي اعتمد عليها **ابن سلام** في تصنيف الشّعراء، ودراستنا لهذا الكتاب جعلتنا نقف على ثلاثة معايير مختلفة يمكن حصرها فيما يلي:

1. 1 التّاريخ (الزّمان):

سبق وذكرنا أنّ **ابن سلام** صرّح في مقدمة كتابه أنّه تناول في دراسته طبقتين من الشّعراء: طبقات فحول الجاهلية وطبقات فحول الإسلام يقول: « ففصلنا الشّعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الّذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكلّ شاعر بما

وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء »[1]، وهنا يبدأ المعيار التّاريخي وذلك عندما رتب الشّعراء وفقا لترتيب العصور الأدبيّة، لكنّنا نجده يتضارب في ترتيبه للشّعراء المخضرمين، فحسب القول السّابق الّذي جاء في مقدمة الكتاب ذكر أنّه تناول ثلاث طبقات: الجاهلية والإسلام والمخضرمون، لكنْ إذا بحثنا في متن الكتاب نجده يضع المخضرمين في الطّبقة الجاهلية تارة ويضعهم مرة أخرى في طبقة الإسلام، فهو لم يلتزم بالمنهج الّذي وضعه هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجده لا يراعي الزّمن أثناء ترتيبه للشّعراء داخل الطّبقة الواحدة ودليل ذلك ما جاء ذِكره في الطّبقة الثّانية من طبقات شعراء الجاهلية حيث جعل كلّا من **أوس بن حجر (ت ٦٢٠م) وبشر بن أبي خازم (ت ٣٢ق.هـ)** وهما شاعران جاهليان **مع كعب بن زهير (ت ٢٦ هـ) والحطيئة (ت ٦٥٠م)** وهما شاعران مخضرمان[2].

1. 2 البيئة (المكان):

المكان هو من المعايير الّتي استند عليها **ابن سلام** في دراسته، ونجده في تصنيفه للشّعراء إلى طبقات يعتمد عليه، إذْ فرق بين شعراء البادية وشعراء الحاضرة لأنّ « لكلّ بيئة منها صورها وأخيلتها الخاصة بها، كما أنّه مدرك لما أحدثه التّحضر من تغيّر في الملكة الفنية؛ فشعر البادية يعكس بصدق صورة الحياة البدوية بصحرائها ومفازاتها وحيواناتها، بينما نجد أنّ شعر الحواضر يعبر عن روح الحضارة الجديدة. إذْ إنّه يعكس نعومة الحضارة وذلك التّرف والرّخاء الّذي كانت تنعم به »[3]، **فابن سلام** أوّل من تناول هذا الجانب في النّقد الأدبي وذلك عندما تطرّق إليه في حديثه عن **عدي بن زيد (ت ٦٠٠م)** الّذي وضعه في الطّبقة الرّابعة من طبقات شعراء الجاهلية يقول: « كان يسكن الحيرة ويراكن الرّيف فلان لسانه وسهل منطقه، فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف [الأحمر] وخلط فيه المفضل فأكثر »[4]، فهنا يميّز بين شعر البادية وشعر المدينة، فالأوّل يحمّل سمات لها علاقة بالبيئة الصّحراويّة، وهذا ما ذكره أثناء تعرضه **لسحيم بن وثيل الرّياحي (ت ٦٠ هـ)** وهو شاعر مخضرم يقول: « وكان الغالب عليه البداء والخُشنة »[5] فشعره يندرج ضمن شعر البداوة، والنّوع الثّاني له مميّزات لها صلة بالحضارة الجديدة، والشّعر في هذه الحالة متباين الأوّل جيّد متماسك وقوي خشن والثّاني ليّنٌ سهلٌ ورقيق عذب، لهذا نجد شعر بعض الشّعراء المخضرمين ينصب في هذا المجرى كونهم عاشوا فترتين مختلفتين البداوة والحضارة، فشعراء البدو الّذين أدركوا الإسلام تطوّر شعرهم بتطوّر البيئة والحضارة العربيّة فتأثرت لغتهم بالوافد الجديد ولان شعرهم ورقت ألفاظهم وتغيّرت معانيهم وهذا يعدّ مشكلة عند **ابن سلام** وقد ذكر ذلك إذْ يقول: « وأشعار

قريش أشعار فيها لين، فتشكل بعض الإشكال »[6]. وهذا مقارنة بشعر الشّعراء الّذين عاشوا في البادية والّذين حافظوا على سليقتهم ولغتهم الصّافية الّتي لا يشوبها اللّحن.

ويتضح ذلك أيضا من خلال الطّبقات الّتي أضافها النّاقد في الجزء الأوّل من الكتاب، والّتي لم يصرّح بها في المقدمة، وهي خمسة مدن وأفضل شعراء هذه المدن حسب **ابن سلام** شعراء المدينة يقول: « وهي خمسٌ: المدينة، ومكة، والطّائف، واليمامة، والبحرين، وأشعرهن قرية المدينة »[7]، وفي الوقت نفسه هو يفرق بين شعراء البادية الّذين ذكرهم في الجزء الأوّل من الكتاب وشعراء القرى.

1. 3 الفحولة والشّهرة:

أقرّ **ابن سلام** في مقدمة الكتاب أنّ دراسته مقتصرة على الشّعراء المشهورين فقط يقول: « ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيّامها (...) فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشّعر »[8]، ويقول: « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا »[9]، وربما سمي الكتاب بـ "طبقات فحول الشّعراء" لهذا الأمر، فالنّاقد لم يتعرض إلى كلّ الشّعراء بل صوّب نظره إلى الفحول منهم.

1. 4 السّبق والابتداع:

جعل **ابن سلام امرؤ القيس (ت ٥٤٠م)** على رأس الطّبقة الأولى من طبقات شعراء الجاهلية، وعلّل ذلك كونه لم يبتدئ **بامرئ القيس** لأنّه أفضل الشّعراء وإنّما لأنّه وجب عليه الابتداء بأيّ شاعر يقول: « _ وليس تبدِئتُنا أحدهم في الكتاب نحكم له، ولابد من مبتدأ _ »[10]، لكنْ هذا لا يعني أنّ تقديمه **لامرئ القيس** كان اعتباطا، فقد احتج له بما ذكره عنه الرّواة الّذين أخذ بروايتهم.

احتج **ابن سلام** في تقديمه **لامرئ القيس** إلى عدّة حجج باعتبارها معايير فنية جعلته شاعرا فحلا خنذيذا، وأوّل هذه المعايير السّبق والإبداع فيقول: « فاحتج **لامرئ القيس** من يقدمه قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنّه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشّعراء، استيقاف صحبه، والتّبكاء في الدّيار، ورقة النّسيب، وقرب المأخذ، وشبه النّساء بالظّباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد. وأجاد في التّشبيه. وفصل بين النّسيب* وبين المعنى »[11]، **فابن سلام** وضع **امرؤ القيس** في هرم الطّبقة لأنّه أوّل من تطرّق إلى هذه المعايير الفنية في شعره، فهو في نظره أوّل من بكى ووقف على الرّسوم وآثار الدّيار، وأوّل من استعمل صورا جديدة في التّشبيه استوحاها من بيئته البدوية الصّحراويّة كتشبيه النّساء بالظّباء وغيرها من الصّور، فكان المبدع

للعديد من الخصائص الفنية الّتي جاراه فيها من جاء بعده من الشّعراء، ولكنّ **ابن سلام** لم يقدّم رأيه في هذه المقاييس بدليل قوله "فاحتج" أي أنّه أخذ بأقوال العلماء الموثوق فيهم.

يقول **امرؤ القيس** في بداية معلقته[12]: [بحر الطّويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

عدّ العلماء هذا الافتتاح أعظم افتتاحا قدّمه **امرؤ القيس** « لأنّه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصرع واحد »[13]. فصوّر لنا حالته النّفسيّة المتعبة بسبب غياب أحبائه، وكيف روّح عنه أصدقاءه جراء الحزن الّذي أصابه وعاد به إلى الزّمن الجميل زمن اللّهو والعبث.

ويقول أيضا[14]: [بحر الطّويل]

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِد قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

يصوّر الشّاعر في هذا القول قوة فرسه وضخامته وتميّزه بالسّرعة ما جعل الشّاعر يتفرغ للصّيد، فالفرس في نظره أصفاد يُكبل بها الوحوش.

1. 5 العروض:

العروض من المقاييس الّتي احتج لها **ابن سلام** في دراسته، ولكنّه تعرّض لها عند **الأعشى (ت ٧هـ)** فقط الّذي وضعه في الطّبقة الأولى يقول: « هو أكثرهم عروضا »[15]. **فالأعشى** في نظر النّاقد تميّز عن غيره لكثرة نظمه الشّعر على أوزان مختلفة، فشعره غنيّ من حيث الموسيقى عكس الشّعراء الّذين ينظمون على بحر واحد أو بحور محدّدة، وبناء على ذلك قدّمه وفضله على غيره من الشّعراء لتفرّده وتميّزه عليهم في هذه الصّفة، وقد نظم **الأعشى** في عدّة بحور منها: بحر الطّويل الّذي نجده في معظم قصائده، بحر البسيط، بحر الكامل، بحر المتقارب، بحر الرّجز، بحر الوافر، وكان نظمه على البحور التّامة والمجزوءة.

1. 6 النّسب:

بمجرد تفحصنا لفهرس الكتاب نلاحظ اعتماد النّاقد على معيار النّسب، فنجده يستذكر أثناء الكلام علاقة الشّعراء فيما بينهم فذكر عندما تعرّض **لكعب بن زهير** أخيه **بجير (؟)** يقول: « ... وكان أخوه بجير بن زهير أسلم، وشهد مع النّبي عليه السّلام فتح مكة وحنينا »[16].

ونجده يتعرض إلى المقياس داخل الطّبقة الواحدة، وهذا أثناء تصنيفه لشعراء القرى إذْ يقول: « شعراؤها الفحول خمسة: ثلاثة من الخزرج، واثنان من الأوس »[17]. ويذهب أكثر من ذلك حينما يُفصل في نسب الشّعراء الخمس، فمن الخزرج ذكر **حسان بن ثابت (ت ٥٤هـ)** وهو من بني

النّجار **وكعب بن مالك (ت ٥١هـ)** وهو من بني سلمة **وعبد الله بن رواحة (ت ٨هـ)** وهو من بلْحارث بن الخزرج، ومن الأوس ذكر **قيس بن الخطيم (ت ٢ق.هـ)** من بني ظفر **وأبو قيس بن الأسلت (ت ١هـ)** من بني عمرو بن عوف[18]، وهذا يؤكد تمسّك **ابن سلام** بهذا المعيار.

ويبرز هذا المقياس أكثر في تخصيص بعض الطّبقات لأقوام معيين، ونجد ذلك في الطّبقة السّادسة والثّامنة والعاشرة من طبقات شعراء الإسلام، الأولى نسبها لأهل الحجاز والثّانية نسبها لبني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان والثّالثة نسبها لبني عامر بن صعصعة.

1. 7 الغرض الشّعري:

تطرّق **ابن سلام** في مرات عديدة إلى الغرض الشّعري باعتباره مقياسا مهما في التّفضيل بين الشّعراء، وكان ذلك بين الشّعراء داخل الطّبقات أو إفراده لطبقة خاصة بهذا المعيار.

وإذا عدنا إلى الحجج الّتي ذكرها النّاقد في تقديمه **للأعشى** نجده يقول « وأذهبهم في فنون الشّعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا »[19]. فقدّم **ابن سلام الأعشى** لأنّه طرق باب كلّ الأغراض ولم يكتف بغرض واحد، فالأعشى في نظره أكثر تصرفا في فنون الشّعر، فلو كثر شعره وقصره على غرض واحد لأخره وقدّم عليه غيره من الشّعراء.

ونجده يضع **الأسود بن يعفر (ت ٦٠٠م)** في الطّبقة الخامسة من فحول الجاهلية يقول: « وكان **الأسود** شاعرا فحلا، وكان يُكثر التّنقل في العرب يجاورهم، فيذمّ ويحمد، وله في ذلك أشعار. وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشّعر»[20]. فهو ينبه إلى تنوّع الأغراض الشّعرية لهذا الشّاعر مع توفر عنصر الجودة.

وإذا ذهبنا إلى الطّبقة الأولى من شعراء الإسلام نجده يقدم **جريرا** على **الفرزدق** لأنّ شعره مبنيا على عدّة أغراض، فله قدرة على تنويع المواضيع وملكة شعريّة لا يحسنها **الفرزدق**، كما قدم **كثيرا (ت ٧٢٣م)** ووضعه في الطّبقة الثّانية من الشّعراء الإسلاميين وأخر **جميلا (ت ٨٢هـ)** إلى الطّبقة السّادسة للسّبب ذاته، يقول: « وكان **لكثير** في التّشبيب نصيب وافر، **وجميل** مقدم عليه [وعلى أصحاب النّسيب جميعا] في النّسيب، وله في فنون الشّعر ما ليس **لجميل** »[21].

وقد أفرد **ابن سلام** طبقات خاصة بالغرض الشّعري وهذا عندما وضع طبقة لشعراء المراثي وهم: **متمم بن نويرة (ت ٣٠هـ)، الخنساء (ت ٢٤هـ)، أعشى باهلة (ت ؟)، كعب بن سعد الغنوي (ت ٦١٢م)**، فخصص ابن سلام هذه الطّبقة لأنّ شعراؤها تفننوا في هذا الغرض، فصنف الشّعراء من حيث

خصائصهم الشّعرية لكنْ في ظل فن الرّثاء، فهم متكافئين في الغرض الشّعري مختلفين في السّمات الفنية.

والشّيء نفسه في تصنيفه للشّعراء الرّجاز الّذين وضعهم النّاقد في الطّبقة التّاسعة من شعراء الإسلام وهم: **الأغلب العجلي (ت ١٩هـ)، أبو النّجم السّجلي (ت ١٢٠هـ)، العجاج (ت ٧١٥م)، رؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـ)**، فالنّاقد استطاع بحنكته التّفريق بين شعر القصيد وشعر الرّجز، وهذا الأخير صعب نظمه فهم خيرة من نظموا في هذا الفن، وعند المقارنة بينهم وازن بين **أبي النجم والعجاج** من ناحية، وبين الرّجاز من حيث مقدرتهم على نظم القصيد والرّجز من جانب آخر فرأى أنّ **أبا النّجم** أحسنهم يقول: « وكان أبو النّجم ربّما قصد فأجاد، ولم يكن كغيره من الرّجاز الّذين لم يحسنوا أنْ يقصدوا »[22].

1. 8 الإجادة والكثرة:

صال **ابن سلام** في مواطن كثيرة من الكتاب بهذا المعيار ويربطه دائما بالجودة، فهما عنصران متلازمان لا يكون أحدهما دون الآخر، وقد قدّم الأعشى فقط لأنّ قصائده اتسمت بالطّول والإجادة، يقول: « وأكثرهم طويلة جيدة »[23]، ونفس الكلام ذكره عندما تحدث عن **حسان بن ثابت**، فيقول: « وهو كثير الشّعر وجيده »[24]، فالكثرة معيار أساس ويُسبقه النّاقد عن الوفرة لهذا نجده يؤخر بعض الشّعراء المجدين لقلة شعرهم مثل تأخيره لشعراء الطّبقة الرّابعة من شعراء الجاهلية الّذين يقولوا فيهم « وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنّما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرّواة »[25]، فالكثرة أهم معيار في نظره، وممّا يدّل على ذلك ما ذكره عن **الأسود بن يعفر** الّذي وضعه في الطّبقة الخامسة من فحول الجاهلية فيقول: « وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشّعر، لو كان شفعها بمثلها قدّمناه عن مرتبته »[26].

1. 9 الدّين:

يتضح معيار الدّين عند **ابن سلام** في وضعه لطبقات فحول الإسلام، وهو الجزء الثّاني من كتابه "طبقات فحول الشّعراء"، وحصر هذه الطّبقة في شعراء صدر الإسلام وشعراء بني أمية، لكنّه يورد في الجزء الأوّل من الكتاب طبقة لشعراء اليهود وتتكوّن هذه الطّبقة من ثمانية شعراء هم: **السّموأل (ت ٥٦٠م)، الرّبيع بن أبي الحُقيق (ت ؟)، كعب بن الأشرف (ت ٦٢٤م)، شريح بن عمران (ت ؟)، سعية بن العريض (ت ؟)، أبو قيس بن رفاعة (ت ؟)، أبو الدّيال (ت ؟)، درهم بن زيد (ت ؟)**[27].

ولم يقدّم **ابن سلام** مبررات في اختياره لهذه الطّبقة، ولا نعرف ما الغاية من عزلهم عن بقية الشّعراء، خاصة وأنّهم أتقنوا الكلام باللّغة العربيّة « وانسجموا مع المجتمع العربي. بل إنّ بعض الأقوام العربيّة اختلطت بهم وتأقلمت معهم، ثمّ أنّهم نظموا باللّغة العربيّة وعبّروا بها عن مشاعرهم وأحاسيسهم، كما أنّ اليهود اشتركوا مع العرب في كثير من عاداتهم وتقاليدهم »[28]، ورغم تخصيصه لليهود طبقة مستقلة نجده لا يعالج عقيدتهم الدّينية المبثوثة في أشعارهم.

وبما أنّ **ابن سلام** صنّف شعراء الإسلام وشعراء اليهود في طبقات مستقلة، لماذا لم يضع لشعراء المسيحية طبقة خاصة بهم؟

1. 10 الحرب:

اعتمد **ابن سلام** على هذا المعيار في تصنيفه لشعراء المدن، إذْ يرى أنّ الشّعر يكون بكثرة في الحروب وضرب مثالا على ذلك حرب الأوس والخزرج، فاحتل شعراؤهم المراتب الأولى في تصنيف شعراء المدن، في حين أخر شعراء لانعدام الحرب عندهم، يقول: « وبالطّائف شعر وليس بالكثير، وإنّما كان يكثر الشّعر بالحروب الّتي تكون بين الأحياء، نحو حرْب الأوس والخزرج، أو قوْم يُغيرون ويُغار عليهم. والّذي قلّل شعر قريش أنّه لم يكن بينهم نائرة*، ولم يحاربوا. وذلك الّذي قلّل شعر عُمان. وأهْل الطّائف في طرَف »[29].

1. 11 الرّواية والإجماع:

جعل **ابن سلام** الرّواية أهم مقياس لديه، فهي العمود للفقري والأساسي في إدارة طبقاته، يقول: « ... وليس لأحد _ إذا أجمع أهل العلم والرّواية الصّحيحة على إبطال شيء منه _ أنْ يقبل من صحيفة، ولا يُروى عن صُحُفي »[30]، فهو يؤكد على أهمية الرّواية وليس أيّ رواية فيجب أنْ تكون الرّواية موثوق فيها ومتواترة عن رواة موثوقين، فالرّواية عملية جادة حسمت الاختلاف بين الدّارسين ومن خلالها يتم الوصول إلى نتيجة متفق عليها، ويكون ذلك بالاعتماد على رأي الجماعة فلا يجوز مخالفتهم أو الخروج عن كلامهم يقول: « وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعض الشّعر، كما اختلفت في سائر الأشياء، فأمّا ما اتّفقوا عليه، فليس لأحدٍ أنْ يخرج منه »[31].

فابن سلام في موازنته بين الشّعراء لم يخرج عن رأي الجماعة في تقديمه للحج، ولا عن رأي أهل العلم وإنّما نجده ملتزما بأحكامهم.

2. نقد كتاب ابن سلام:

أوّل ملاحظة أثارت انتباهنا في كتاب **ابن سلام** أنّه لم يلتزم بالمنهج الّذي وضعه في مقدمة كتابه، إذْ يقول: « ففصلنا الشّعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الّذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكلّ شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء »[32]، فمن خلال هذا القول نجد أنّه كان على **ابن سلام** أنْ يضع ثلاثة طبقات: طبقة لشعراء العصر الجاهلي وطبقة للشّعراء المخضرمين وطبقة لشعراء عصر الإسلام، لكنّ **ابن سلام** خالف منهجه المذكور سابقا ووضع الشّعراء المخضرمين بين الطّبقتين، فتارة يضعهم في طبقات فحول الجاهلية وتارة أخرى في طبقات فحول الإسلام.

ولن نخرج عن المنهج حتّى نجد انزلاق آخر وقع فيه **ابن سلام** ألا وهو إضافة طبقات بعد طبقات فحول الجاهلية دون تقديم مبررات لذلك، فأضاف طبقة أصحاب المراثي وطبقة شعراء القرى العربيّة (شعراء مكة وشعراء الطّائف وشعراء البحرين) وطبقة شعراء اليهود، ولم يقف في تصنيفه لهذه الطّبقات على معايير نقدية وكان حديثه عنها مجرد سرد فقط، وما يزيد على ذلك عدم اتزان هذه الطّبقات مع طبقات فحول الجاهلية وطبقات فحول الإسلام، إذْ أعلن منذ البداية في شكل صريح عن منهجه في توزيع الشّعراء قائلا: « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط في كلّ طبقة، متكافئين معتدلين »[33]، لكنّه عند حديثه عن **أوس بن حجر** وجد نفسه في مأزق لأنّ هذا الشّاعر في نظره يجب أنْ يكون ضمن الطّبقة الأولى من طبقات فحول الجاهلية، لكنّه وضع في رأس الطّبقة الثّانية بسبب اعتماده على الطّبقة المغلقة الّتي حدّدها بأربعة شعراء، وفي نفس الوقت نجده يتناقض مع نفسه وهذا إذا ذهبنا إلى الطّبقات الّتي أضافها نجده يتجاوز عدد الشّعراء المحدّد في منهجه بأربعة شعراء لكلّ طبقة إلى أكثر من ذلك، إذْ وضع في طبقة شعراء القرى العربيّة خمسة شعراء، وخصّ شعراء مكة بتسعة شعراء وشعراء الطّائف بخمسة شعراء وشعراء البحرين بثلاثة شعراء وطبقة شعراء اليهود بثمانية شعراء، **فابن سلام** كسر أفق توقع القارئ بخروجه عن منهجه الّذي حدّده في مقدمة كتابه.

إنّ مقدمة كتاب "طبقات فحول الشّعراء" مقدمة ثرية استطاع من خلالها الوقوف على قضايا نقدية ثقيلة خاصة قضية الانتحال الّتي لا يزال تأثيرها إلى يومنا هذا وأخذت بعدا واسعا في العصر الحديث مع المستشرق **مرجوليوث** وتلميذه **طه حسين**، ونجد أيضا قضية التّوثيق الّتي جعلها **ابن سلام** من أولوياته وأعطى للرّواية اهتماما كبيرا إلى درجة رفض كلّ ما يأتي من الكتب رفضا تاما، وهو في ذلك سار على نهج اللّغويين والنّحويين، وهذا يُحسب لصالح **ابن سلام** الّذي بذل قصارى جهده في غربلة الشّعر للتّمييز بين الشّعر الصّحيح والشّعر المفتعل من جهة، ومن جهة أخذ آراء الرّواة الثّقاة للاحتجاج بها في تصنيف الشّعراء، وغيرها من القضايا أفاد بها **ابن سلام** من جاء بعده من النّقاد.

كما لنا في المعايير الّتي استند عليها **ابن سلام** آراء أوّلها مقياس الزّمن إذْ نجده لم يراع هذا المقياس في ترتيب الشّعراء، ففي الطّبقة الثّانية من طبقات فحول الجاهلية وضع كلّا من **أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم** وهما شاعران جاهليان **مع كعب بن زهير والحطيئة** وهما شاعران مخضرمان[34]، وقد قدّم بعض الشّعراء المخضرمين ووضعهم في طبقات فحول الجاهلية دون تبرير وهم من النّاحية الفنية أقل من شعراء الإسلام مثل وضعه في الطّبقة الثّالثة من طبقات فحول الجاهلية شعراء مخضرمين وهم: **النّابغة الجعدي، أبو ذؤيب الهذلي (ت ٢٧هـ)، الشّماخ بن ضرار (ت ٢٤هـ)، لبيد بن ربيعة (ت ٤١هـ)**، ولم يُقدّم **ابن سلام** تبريرات قوية في تقديمه لهؤلاء الشّعراء والتّبريرات الّتي قدّمها لا علاقة لها بالمعايير الّتي اعتمدها فقدّم **النّابغة** لأنّ شعره مطبوع جاء على السّليقة إذْ يقول: « ولم يكن **أوس بن مغراء** إلى **النّابغة** في قريحة الشّعر »[35]، أمّا **أبو ذؤيب الهذلي** يرى أنّ شعره خالٍ من العيوب والضّعف يقول: « وكان **أبو ذؤيب الهذلي** شاعرًا فحلًا لا غميزة فيه ولا وهن »[36]، في حين قدّم حجج قوية عن **الشّماخ بن ضرار** الّذي يرى في شعره قوة ألفاظه وعبارته وشدة بنائه وتركيبه وأنّ شعره غير لين، فيقول **ابن سلام**: « فأمّا **الشّماخ**، فكان شديد متون الشّعر، أشد أسر كلام من **لبيد**، وفيه كزازة، **ولبيد** أسهل منه منطقا »[37]، أمّا **لبيد** فيرى أنّ شعره يتميّز بالجودة وحسن الدّيباجة إضافة إلى ذلك وصفه بالرّجل الصّادق يقول: « وكان **لبيد بن ربيعة**، أبو عقيل، فارسًا شاعرًا شجاعًا، وكان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلما رجل صِدق »[38]، ونحن نوافق **ابن سلام** في تقديمه لهؤلاء الشّعراء كونهم سبقوا شعراء الإسلام إلى قول الشّعر، لكن هناك تناقض في تقديم **ابن سلام للنّابغة الجعدي** ونجد ذلك عندما قال **ابن سلام** أنّ هذا الأخير: « غلّبت عليه **ليلى الأخيلية** [(ت ٨٠هـ)] **وأوس بن مغراء القريميّ**، ولم يكن إليه ولا قريبا منه، [وغلب عليه] **عقال بن خالد العقيلي** [(ت ؟)]، وكان مفحما بكلام لا بشعر»[39]، **فليلى الأخيلية وأوس بن مغراء القريميّ وعقال بن خالد العقيلي** غلبوه وكان ذلك في الهجاء، والأعجب أنّ **ابن سلام** لم يتعرّض إلى **ليلى الأخيلية وعقال بن خالد العقيلي** ولم يصنفهم في طبقاته بالرّغم من اعترافه لهم بالأسبقية، ولم يترجم **لأوس بن مغراء القريميّ** عندما وضعه في الطّبقة الثّالثة من طبقات فحول الإسلام.

جعل **ابن سلام** من الشّهرة معيارا مهما بنى عليه صفحات كتابه إلّا أنّنا بتصفح هذا الكتاب نجد أنّ **ابن سلام** تناول في كتابه بعض الشّعراء ولم يكتب عنهم شيئا حتّى رواية عنهم لا نجدها وهم: **مسافر بن أبي عمرو (ت ١٠ق.هـ)، عبد الله بن حذافة السّهمي (المزق) (ت ٣٣هـ)، كنانة بن عبد ياليل (ت ؟)، أوس بن مغراء**، فلم يقدم **ابن سلام** أي معلومة عن هؤلاء الشّعراء والسّبب الّذي جعله يُدرجهم في كتابه دون إعطاء أي مبررات لذلك، فما السّبب الّذي جعل **ابن سلام** يذكر هؤلاء الشّعراء في كتابه؟ وما هي المعايير الّتي اعتمد عليها في تصنيفهم خاصة **أوس بن مغراء** الّذي وضعه في الطّبقة الثّالثة من طبقات فحول الإسلام وسبّقه على كبار الشّعراء؟

بما أنّ المعلومات شحيحة عن هؤلاء الشّعراء وقد نبه محقق الكتاب إلى ذلك، ويُمكننا التّغاضي عن شعراء القرى والمدن لأنّه لو حتّى وإنْ ترجم لهم سيكون ذلك مجرد سرد، ووضعهم كان انطلاقا من نسبتهم للمدن الّتي ذكرها، لكنْ ما يهمنا معرفة المقاييس الّتي استند عليها في تقديم **أوس بن مغراء**، لكنْ حسب محقق الكتاب لم يرد اسم الشّاعر في باقي المخطوطات[40].

وإذا عدنا إلى مقياس السّبق والإبداع نجد **ابن سلام** قد تناقض في اعتماده عليه، فقد وضع **امرؤ القيس** على رأس الطّبقة الأولى من طبقات فحول الجاهلية لأنّه سبق العرب إلى أشياء جديدة، لكنّه أغفل ذكر **المهلهل بن ربيعة الثّغلبي** رغم اعترافه أنّه « أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع »[41] وهذا خطأ جسيم كان يجب على **ابن سلام** تجاوزه.

وقد أخفق **ابن سلام** مرة أخرى عندما أدرج شعراء الرّجز مع طبقات فحول الإسلام، وكان عليه وضعها كطبقة مستقلة مثل طبقة أصحاب المراثي، كما نجده خصّص طبقة لشعراء اليهود وكان عليه أنْ يتبع نفس المنهج ويضع طبقة خاصة بشعراء المسيحية، لكنّنا نجد العذر له كون شعراء اليهود يشكلون الأقلية مقارنة بشعراء الإسلام والمسيحية.

نلاحظ طول نفس **ابن سلام** عندما تعرّض للطّبقة الأولى من طبقات فحول الإسلام مقارنة بباقي الطّبقات سواء في طبقات فحول الجاهلية أو طبقات فحول الإسلام، وربما يعود ذلك إلى كثرة اشتداد التّنافس بين شعراء النّقائض الثّلاث.

لم يتعرض **ابن سلام** في كتابه للشّاعرات إلّا مرة واحدة، وهذا عندما ذكر الخنساء في طبقة أصحاب المراثي، بالرّغم من وجود شاعرات معرفين في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي.

آخر نقطة نتعرض لها نقطة لصالح **ابن سلام** وهي مسألة التّوثيق، الّذي اتّبعه بالاعتماد على اللّغويين والنّحويين وأخذ مدرسة البصرة نموذجا ليحتذى بها، وهي مدرسة متشدّدة ومدققة في الرّواية، فعمله كان دقيقا لا تشوبه شائبة من حيث التّوثيق، فوقف انطلاقا من هذه العملية على الشّعر الصّحيح والشّعر المنحول واستطاع التّمييز بينهما.

خاتمة:

نصل إلى نهاية بحثنا مع هذا النّاقد الفذ، الّذي استطاع بفطنته تصنيف الشّعراء إلى طبقات، وإبراز قضايا نقدية قيّمة رغم المآخذ الّتي عرفها كتابه، **فابن سلام** وضع اللّبنات الأولى للنّقد الأدبي القديم، لكنْ لولا تأثره بسابقيه لمّا وضع كتاب في الطّبقات، فتأثره بالمحدِّثين الّذين كانوا السّباقين إلى فكرة الطّبقات، فهو لم يبتدع هذا المنهج ولكنّه أوّل من اعتمده في النّقد الأدبي القديم.

يمكن تلخيص نتائج البحث فيما يلي:

_ التّمييز بين الشّعر والنثر وذلك أثناء حديثه عن مفهوم الشّعر الّذي ربطه بثلاثة عناصر: العروض والقوافي والبناء، وفي نفس الوقت يرى أنّ الشّعر لا يتحقّق بالوزن والقافية فقط، وضرب مثالا على ذلك الشّعر الّذي رواه **ابن إسحاق**.

_ تعرّض **ابن سلام** من خلال دراسته لشعر الشّعراء إلى بنية القصيدة العربيّة، والّتي جاءت مكتملة البناء عند **امرؤ القيس**، فتبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال واستبكاء الدّيار، لينتقل بعدها إلى الغزل وتشبيه النّساء، ويخرج من الغزل إلى غرض آخر بحسب رغبة الشّاعر.

_ تنبه **ابن سلام** إلى حقيقة الشّعر باعتباره صنعة كغيره من الصّناعات.

_ تعصب **ابن سلام** للشّعراء القدامى وعدم تقبله للشّعراء المحدَّثين، وهنا نجده تأثر باللّغويين والنّحويين.

_ عدم التزام **ابن سلام** بالمنهج الّذي حدّده في مقدمة كتابه، وإخفاقه في تطبيق هذا المنهج، خاصة بعد تجاوز حدّ الشّعراء في الطّبقة الواحدة.

_ إدراج **ابن سلام** لشعراء لم يترجم لهم دون تقديم أي مبررات.

يحظى كتاب **ابن سلام** باهتمام كبير لدى الدّارسين رغم الانتقادات الّتي اعترته، فيبقى أوّل مصدر وصل إلينا في النّقد الأدبي القديم والّذي يُعتبر الأساس الأوّل فيه، خاصة مقدمة الكتاب الغنية بالقضايا النّقدية الّتي لا تزال قابلة للدّراسة إلى يومنا هذا خاصة قضية الانتحال، **فابن سلام** هو أوّل ناقد متخصص في هذا المجال، إذْ عكف على قراءة شعر الشّعراء انطلاقا من آراء اللّغويين والنّحويين واستخرج من هذه القراءة قضايا أساسية يقوم عليها الشّعر، فعمله لم يكن سهلا خاصة اعتماده على التّحري والتّوثيق، فعمله يبقى ثريا رغم ما تخلّله من عيوب.

الهوامش:

[1]. ابن سلام الجمحي، دت، طبقات فحول الشّعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دط، ج1، ص23 و24.

[2]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص97.

[3]. جهاد المجالي، 1992، طبقات الشّعراء في النّقد الأدبي عند العرب _ حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري_، دار الجيل، بيروت، ط1، ص124.

[4]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص140.

[5]. المصدر نفسه، ج2، ص577.

[6]. المصدر نفسه، ج1، ص245.

[7]. المصدر نفسه، ج1، ص215.

[8]. المصدر نفسه، ج1، ص03.

[9]. المصدر نفسه، ج1، ص24.

[10]. المصدر نفسه، ، ج1، ص50.

[*] النّسيب هو شعر الغزل.

[11]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص55.

[12]. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، دت، شرح القصائد السّبع الطّوال الجاهليات، تح: عبد السّلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، ص15.

[13]. ابن رشيق القيرواني، 1981م، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، ج1، ص257.

[14]. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السّبع الطّوال الجاهليات، مصدر سابق، ص218.

[15]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص65.

[16]. المصدر نفسه، ج1، ص99.

[17]. المصدر نفسه، ج1، ص215.

[18]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[19]. المصدر نفسه، ج1، ص65.

[20]. المصدر نفسه، ج1، ص147.

[21]. المصدر نفسه، ج2، ص545.

[22]. المصدر نفسه، ج2، ص749.

[23]. المصدر نفسه، ج1، ص65.

[24]. المصدر نفسه، ج1، ص215.

[25]. المصدر نفسه، ج1، ص137.

[26]. المصدر نفسه، ج1، ص147.

[27]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص279.

[28]. جهاد المجالي، طبقات الشّعراء في النّقد الأدبي عند العرب _ حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري_، مرجع سابق، ص149.

[*] النّائرة: الحقد والعداوة.

[29]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص259.

[30]. المصدر نقسه، ج1، ص04.

[31]. المصدر نقسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[32]. المصدر نقسه، ج1، ص23 و24.

[33]. المصدر نقسه، ج1، ص24.

[34]. ينظر: المصدر نقسه، ج1، ص97.

[35]. المصدر نفسه، ج1،ص126.

[36]. المصدر نفسه، ج1، ص131.

[37]. المصدر نفسه، ج1، ص132.

[38]. المصدر نفسه، ج1، ص135.

[39]. المصدر نقسه، ج1، ص125.

[40]. ينظر: المصدر نفسه، ج2، تهميش رقم 1، ص572.

[41]. المصدر نقسه، ، ص39.